قصص الرشيد



مجد البرامكة

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

— ٢ —

مجد البرامكة

بقلم

إبراهيم عزوز

مطبعة نهضة مصر

الفجالة . القاهرة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغـداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودَّها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هـذا العصر الذهبي ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة ، والعبرة النافعة .

وإنى إذ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق .　　　　　　　　　　المؤلف

— ١ —

هل سمعتَ أيها القارِئُ الصغيرُ عنّا ؟ وهل عرفتَ شيئاً من أخبارِنا ؟

نحن البرامكةُ ... فهل تذكرتَ الآن شيئاً من قصصِنَا وأخبارِنَا ؟!

نعتقدُ أَنَّكَ لابدَّ أن تكونَ قرأتَ قصةً من قصَصِ الرشِيدِ ، وعرفتَ فيها وزيره جَعْفَرًا الذى كانَ يصاحبُهُ فى كل مكانٍ .

وجعْفَرٌ هذا واحدٌ مِنَّا . ولَيْسَ هو أكثرَنا كرمًا ، ولا أَشْهَرَنا ذكرًا وصِيتًا . ولكنَّ أخبارَ الرَّشيدِ دائماً تَذْكُرُهُ وتَتَحَدَّثُ عنه .

ونحنُ نحبُّ أن تعرفَ كثيرًا من أخبارِنَا الصادقةِ ، وتعلمَ أسبابَ غضبِ الرشيدِ علينا فى آخرِ أيامِنَا ، وأسبابَ

النكبةِ التى حلَّتْ بِنَا ، وأصابَتْنَا فى أموالِنا وأنفُسِنَا ، وقَضَتْ علينا فى يومٍ وليلةٍ قضاءً تامًّا .

وما دمتَ قد سمعتَ اسمَ جعفرٍ من قبلُ ، وعرفتَ أنهُ واحدٌ منَّا ، فسنتركُهُ هو يحدِّثُكَ عنَّا . وقد طالَبْنَاهُ بأن يكونَ صادقاً فى حديثِهِ وأخبارِهِ . فاسْمَعْ منهُ بعنايةٍ ، فهو يحدِّثُكَ الآن :

* * *

— أَنَا يا صديقى العزيز جعفرٌ الْبَرْمَكِىُّ . أبى يَحْيَى ، وجَدِّى خالدٌ . أما جَدِّى الأكبرُ فقد عرفَهُ الناسُ باسمِ برْمَكٍ ، ولذلك نُسِبْنَا إليه ، وقيلَ عنَّا : البرامكةُ .

وأنت طبعاً لا تعرفُ معنَى كلمةِ بَرْمَكٍ التى أُطْلِقَت على جَدِّنا الأكبرِ ، وستعرفُ معناها الآنَ :

نحنُ أسرةٌ فارسيةٌ يا عزيزِى ، والفرسُ قبلَ الإسلامِ كانُوا مجُوسًا ، أىْ يعبدونَ النارَ ويُقَدِّسُونَهَا ، كما تعبُدونَ أنتم الآنَ اللهَ سبحانَهُ وتعالى وتُقَدِّسُونَهُ .

وكانُوا يقيمونَ للنارِ بيوتًا للعبادةِ ، يُشعِلُونَ فيها النارَ وَيحْرسُونَها ، ويَضَعُونَ فيهـا الحطَبَ والزَّيتَ ؛ لتظلَّ دائماً مشتعلةً .

وكانَ الرجُل الذى يَحْرُسُ هذه النـــارَ المقدَّسَةَ ، وَيَخْدُمُها يسمَّى بَرْمَكَ . وأظُنُّكَ قد عرفتَ الآنَ العملَ الذى كانَ يقـومُ به جَدُّنا الأكبرُ ... إنهُ كانَ خادمَ النارِ المقدَّسَةِ وحارِسَها الأمينَ فى مَدِينَـةِ بلْخ ، إحدَى المدنِ الـكبيرةِ فى بلادِ الفرسِ ، ولِهَذَا أطلَقُوا عليهِ اسمَ بَرْمَكَ .

لقَدْ كانَ هـذَا العملُ الدينيُّ يَجْعلُ صاحبَهُ كثيرَ الاحْتِرَامِ ، عَظِيمَ المنزلَةِ بينَ الناسِ ، واسعَ الغِنَى ، وافرَ الثروَةِ .

ولهذا عاشَ جدُّنَا محترَمًا معظماً ، وقدْ جمعَ لنَـا ثروةً طائلةً ، وغنًى كبيرًا .

ولما شرَّف اللهُ بلادَ الفرسِ بدخولِ الإسلامِ فيها ، على يدِ أبطالِ العَربِ ، أمثالِ خالد بنِ الْوَليدِ ، وسعد بنِ أبى وَقَّاصٍ وغيرِهما ، أسرعَ جَدُّنَا باعتناقِ الإسلامِ . وبذلك صارَتْ لهُ جميعُ الحقوقِ التى لِغَيْرِهِ من المسلمين ، وحَفِظَ المسلمونَ له منزلتَهُ وثروتَهُ ، ولم يَمسُّوه بأذَى .

وقد استراحَ جَدِّى كثيرًا لقوانينِ الإسلامِ ومبادِئِه الكريمةِ ، كما استراحَ غيرُهُ من الذين اعْتَنَقُوا الإسلامَ وتركُوا دِياناتِهم القديمةَ الفاسدةَ ؛ لأنهم وَجَدُوا الإسلامَ يُسوِّى بين المسلمينَ جميعًا ، ولا يفضِّلُ أحدًا على أحدٍ إلا بالتَّقْوَى والعبادةِ ، ولا يأخُذُ من أحدٍ مالاً إلا بطريقِ القانونِ والحقِّ .

حتى أهل الذمةِ ، وهم الذينَ ظَلُّوا يحتَفِظُون بدينهم القديم ، بعدَمَا فَتَحَ المسلمُونَ بلادَهم ، ولم يَقْبَلوا الدخولَ فى الإسلامِ ، ورَضُوا أن يدفعوا جزءًا من المالِ يُسَمَّى

جِزْيَةً فى كلِّ سنةٍ — حتى هؤلاءِ الذِّمِّيُّون ، حَفِظَ الإسلامُ أموالَهم وحقوقَهم وأرواحَهم ماداموا يَدْفعون هذهِ الجِزْيَةَ . بل أَراحَهم الإسلامُ من الجُنْدِيَّة والحروبِ ، وفَرضَ على المسلمين أن يُدَافِعُوا عنهم إذا اعتدَى أحَدٌ عليهم .

وأنتَ طبعًا تعرفُ هذه الحقائقَ العظيمةَ عن الإسلامِ ؛ لأَنَّه دينُكَ ودينُ آبائِكَ وأجدادِكَ . ولكنى ذكرتُها لك الآنَ ، لأُعَرِّفَكَ أن جَدِّى الأكبرَ حينما اعتنَقَ هذا الدينَ الكريمَ اعتَنَقَهُ راضياً ، وأخْلَصَ له وأحبَّهُ كلَّ الحبِّ ، لأنهُ رأىَ فيه العدلَ والمساواةَ بين الناسِ

وبذلِكَ قَضَى جدِّى حياتَه معظمًا مكرَّمًا فى بلادِهِ قَبْلَ الإسلامِ وبعدَهُ .

وقد حدثَتْ بينَ المسلمينَ مع الأسفِ الشديدِ فِتنٌ وحروبٌ ، زمنَ الخليفةِ العظيمِ عليٍّ بن أبى طالبٍ . وانتهَتْ هذه الحروبُ بانتصارِ معاويةَ وحِزْبِهِ ، وقيامِ الدولةِ الأمويةِ .

ولم يكنْ ملوكُ هذهِ الدولةِ يُنَفِّذُونَ تعاليمَ الإسلامِ العادِلةَ بدقَّةٍ وعنايَةٍ . فتعصَّبُوا للعربِ ، وَرَفَعُوهم فوقَ الأجناسِ الأُخرَى من المسلمينَ . وفضَّلُوا كلَّ ما هو عربيٌّ على غيرِهِ .

فما رأيُكَ فى سياستِهم هذِهِ ؟ ! أتظُنُّ أَنَّهَا سياسةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ ؟ ! يُخَيَّلُ إلىَّ أنَّكَ تقولُ : نَعَمْ ، لقَد أحسنَ الأُمَوِيُّونَ بتَعَصُّبِهِمْ للعربِ ، لأنَّ العربَ هم أصلُ المسلمينَ جميعاً .

ولـكنِّى أردُّ عليكَ فأقولُ :

— إن تعصُّبَ الأمويِّينَ للعربِ ، وتفضيلَهم العرب على غيرِهم ، جعلَ المسلمين من الأمَمِ المفتوحةِ يَغْضَبُونَ ويتألمونَ ، ويرون حُقوقَهم التى اعترَفَ لهم بها الإسلامُ ، قد ضاعَتْ منهم . ولهذَا غضِبَ الفرسُ وغضِبَ جَدِّى معهم .

وكانَ الْهَاشِمِيُّونَ يكرهون بنى أُمية أشدَّ الـكراهيةِ . والهاشميون هم أبناءُ علىّ والعباسِ ، فهم أحفادُ النبىِّ صلى اللهُ عليه وسلم . وأولادُ عمِّهِ . فلما عرَفوا أن الفرسَ يشتركون معهم فى كراهية بنى أمية ، دَعَوْهُم إلى نصرتِهم ومُساعَدِتهم سرًّا ، فلَمْ يتأخَّر الفرسُ فى نُصْرَتِهِمْ . بل أسرعوا وكوَّنوا الجمعيات السرِّيَّةَ فى بلادِ خراسانَ البعيدةِ ، وظلُّوا يدعون الناسَ لها حتى أصبحتْ خطرًا كبيرًا على الدولةِ الأُمويةِ . وفى النِّهايةِ ثارَتْ جُيوشُ الفُرْسِ فى خرسانَ على بَنِى أُمَيَّةَ ، وأزالت دَوْلَتَهم وقضَتْ عليهم .

وكان الفرسُ يعتقِدُونَ أن الذين سيتوَلَّوْنَ الحكمَ بعدَ الأُمَوِيِّينَ هم العَلَوِيُّون أبناءُ عليٍّ . ولكنهم فُوجِئُوا بزعيمِ العَبَّاسِيِّين أبى العباسِ السفَّاحِ ، يُبْعِدُ أبناءَ عَمِّه عليٍّ ، ويقفِزُ هُوَ على عَرْشِ الخِلافةِ .

تألَّمَ الفرسُ وتألَّمَ جَدِّى معهم . ولكنَّهم مَعَ ذلك نَاصَرُوا العباسِيِّين وساعَدُوهم ؛ حتى يتمكَّنُوا من القَضَاءِ على الأُمَوِيِّينَ قضاءً نهائِيًّا .

وهنا ظهرَ جَدِّى خالدٌ البَرمكيُّ رحمَهُ اللهُ ، ولَعِبَ دورًا خَطيرًا فى خلافةِ أبى العباس السفاحِ ، أولِ خلفاءِ الدولةِ العباسيَّةِ ، فقد اختارَهُ وزيرًا له فساعدَه أتمَّ مساعدةٍ فى إدارةِ شئونِ هذهِ الدولةِ النَّاشِئَةِ ، وكذلك كان شأنُه مع الخليفةِ الثانى أبى جَعفرٍ المنصورِ ، الذى يُعَدُّ بحَقٍّ مُؤَسِّسَ الدولةِ العباسيةِ ؛ فقدْ جعلَهُ المنصورُ حاكمًا على مقاطَعَتَين كبيرَتَين ، فى شمالِ بلادِ العراقِ وسُورِيا الحاليَّتَين



ثارت جيوش الفرس فى خراسان . . .

وكذلك ظهرَ مجدُ أبى ، وهو يَحيى البرمكىُّ فى خلافةِ المنصُورِ ، فقد اعتمَد عليهِ المنصورُ وهو لا يزالُ شابًّا ، فجعلَهُ حاكمًا على مقاطعةٍ أُخرى من بلادِ الخلافةِ الإسلامِيَّةِ الواسعَةِ .

ولما جاءَ الخليفةُ المهدىُّ ، وكان يُحِبُّ أبى ويَثِقُ به ، جَعَلَهُ مُرَبِّيا لِوَلَدِهِ هارُونَ ، الذِى صارَ فيما بعدُ خليفةً ، وَلُقِّبَ الرشيدَ .

وكان أَبِى (رحمهُ اللهُ رحمةً واسعةً !) عالمًا فاضلاً عاقلاً ، فأحْسَن تربِيَةَ الرشيدِ ، حتى صارَ خَيْرَ الْخلَفاءِ علمًا وشجاعةً .

وأنتَ الآنَ ترانى أعتَرِفُ للرشـيدِ بصفَتَين عظيمَتَينِ ، مع أنه قَتَلَنى ظُلْمًا ؛ وذلكَ لأنَّنى تعهدْتُ

أن أُخبِرَكَ بالحقيقةِ ، ولأن الأمواتَ لا يعرفون الكذبَ .

وقد دافَعَ أبى عن الرشيدِ دفاعًا كريمًا أمامَ أخيهِ الهادِى ، الذى كانَ خليفةً قبلَه . فقدْ أرادَ الخليفةُ الهادى أن يقتُلَ أخاهُ الرشيد ، ليكونَ ابنُهُ هو ، خليفةً من بعده . ولكنَّ أبِى وقَفَ أمامَ الهادِى ، وساعَدَ الرشيدَ على الهروبِ من وَجهِهِ ، حتى تعرَّضَ أبى لغَضبِ الهادِى وانتقامِهِ . ولوْ طالتْ مدةُ حكمِ الهادِى لَقُتِلَ الرشيدُ وقُتِلَ أَبِى معَهُ . ولكن الله سلَّمَ . وكانَتْ وفاةُ الهادِى قريبةً ، فلم يَتَمكَّن من تَنفِيذِ مكيدَتِهِ .

وأسرعَ أبِى بنُفُوذِهِ بين الْجُنْدِ والقوَّادِ ورِجالِ الدولةِ ، فأخذَ البيعَةَ للرشيدِ ، وأخرجَهُ من مخبئِهِ ، وجعلَهُ خليفةً للمُسلمين .

ماذا يعملُ الرشيد لأَبِى ؟ وكيفَ يقابِلُ إحسانَهُ

إليه ؟ الحقُّ أنَّ الرشيدَ كانَ وفيًّا عظيمَ الوفاءِ . فلم يتردَّدْ لحظةً في جعلِ أبي كبيرَ وُزَرائِه . ولم يمضِ إلا قليلٌ من الزمنِ حتى عيَّن أخي الفضل وزيرًا ليساعدَ أبي . ثم جاء دوري بعد قليلٍ فجعلَني وزيرًا كذلك .

وتركَ لنا جميعَ أمورِ الدولةِ وسلّمَ لنا أختامَها . وبذلك تمَّ مجدُنا وسيادتُنا . ومكثنا على ذلك سبعةَ عشرَ عامًا كاملةً ، حتى وقعَ قضاءُ اللهِ فينا .

✡ ✡ ✡

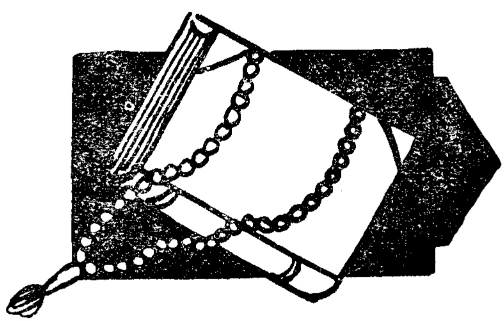
وكان الرشيدُ — سامحهُ اللهُ — يُنادِي يحيى بقولِهِ : يا أبي . وكان الفضلُ أخاه من الرَّضَاعِ . ولكنَّه كان يُحبُّني أنا ويُفضِّلني عليهما . ولا يستطيعُ أن يقعُدَ في مجلسٍ لا يراني فيه . ومِنْ أجلِ هذا ترى القصصَ الخياليَّةَ دائمًا تذكُرُني معه ، وتَصِفُني ظالما بأني كنت أُعِدُّ له مجالسَ اللهوِ والطربِ .

والحقُّ أنَّني كنتُ أحِبُّ الرشيدَ كما كانَ يُحبُّني ،

وكنتُ أُخلِصُ لهُ أعظمَ الإخلاصِ ، وأريحهُ من كُلِّ تعَبٍ وعناءٍ ، ولا أتركُ شيئاً يكدِّرُهُ ويُنغِّصُ عليهِ . سواءٌ أ كانَ فى بيتِهِ أم فى دَوْلتِهِ .

وقد عَرَف هوَ ذلكَ منِّى ، ولهذَا كانَ لا يُؤَخِّرُ لى طَلَبًا ، ولا يَرُدُّ لى كلمةً فى شأنٍ من الشُّئُون ، حتَّى كانَ الناسُ يتعَجَّبُون من تَصَرُّفَاتى معَهُ .

وأَتذَكَّرُ حادثةً وقعَتْ لِى معَهُ ، ولكنِّى لا أقْصُّهَا عليك أنا ؛ لأَنى أخْشَى أن تَشُكَّ فى صِدْقِها . بل سأَدعُو صَدِيقى إبراهيمَ بنَ المهدىِّ ، وهو أخو الرشيدِ ؛ لِيُخْبِرَكَ بهذه القِصَّةِ ، وأترُكَكَ بعدَ سماعِهَا ، تفْهَم منها ما تشاءُ .



تحدث يا إبراهيمُ ؛ فقد كنتَ حاضرًا فى هذه القصَّةِ .

— لقدْ كنتُ حاضرًا فى قصَصٍ كثيرةٍ معك يا جعْفرُ ، فأىّ قِصَّةٍ تريدُ أن أَتَحَدَّثَ بها ؟

— حَدِّثْهم يا إبراهيمُ بقصةِ عبدِ الملكِ بنِ صالحٍ .

— آه ... ذَكَّرْتَنى ... لَقدْ كانَ ذلكَ فى الدُّنيا ، أيامَ أن كُنَّا أحياء ، وكُنَّا شبابًا ، ولنا لهوٌ وعبثٌ .

وكنتُ أنا مع أنى ابنُ خَليفـةٍ ، وأخو خليفةٍ ، أُحسنُ الغناءَ وأُجيدُه جدًّا . وكان جعفرٌ يحِبُّ الغناءَ ويحبُّ مجالسَ الطربِ ؛ ليريحَ بها نفسَهُ من عناءِ العمَلِ .

ومَع أنى كنتُ ذا منزلةٍ كبيرةٍ فى الدولةِ بحكمِ أَصْلِى وقرابَتِى للخليفةِ ، كنتَ أَجِدُ نَفْسِى مُضطـرًّا

لإرْضاءِ البرامِكةِ ، وخصوصًا جَعْفرًا ؛ لأَنَّهم كانوا أصحابَ نفوذٍ كبيرٍ ، ولايستطيعُ أحدٌ أن يقضِيَ حاجةً من حاجاتِه فى الدولةِ بغيرِ رضاهُمْ وموافَقَتِهم . وهذا ماكنَّا نعيبُ أَخِى الرشيدَ من أجْلِهِ .

وقد دعَانِى جعفرٌ ذاتَ مرةٍ إلى بيتِهِ فى يومِ راحةٍ ، وعقدَ مجلسًا للغِنَاءِ والطربِ ، وأمرَ حاجبَهُ ألَّا يسمَحَ لأحدٍ بالدُّخولِ علينَا ، إلا رجلًا يسمَّى عبدَ الملكِ القَهْرَمَانِى . وكان من عَادَتِنَا فى هذه المجالسِ أن نَلبس ملابِسَ خاصةً ، كما تفعَلُونَ أنتم الآنَ فى حفَلاتِ السَّهرةِ .

وبعد قليلٍ جاءَ شيخٌ جليلٌ من أعمامِ الخليفَةِ ، هو عبدُ الملكِ بنُ صالحٍ ، وطلبَ الإذنَ على جعفرٍ بالدخولِ ، فظَنَّ الحاجبُ أنَّه عبدُ الملك القَهْرَمَانى ، وأَدْخَلَه علينَا خطأً . وكان عبدُ الملك بنُ صالحٍ رجلًا محترمًا ، لا يألَفُ

مجالسَ اللَّهْوِ ، ولا يُحِبُّ الغِنَاء . ولا يرضَى أن يَجْلِسَ مع الشُّبانِ أمثالِنَا فى مثلِ هذَا المجلِسِ .

فلمَّا دخلَ ، ورآه جعفرٌ ، فَهِمَ الخَطَأَ الذى وقَعَ فيه الحاجبُ ، وخَجِلَ من عَبدِ الملكِ بنِ صالحٍ . وظهرَ فى وجهِه الاسْتِحْيَاءُ منه .

ولكنَّ عبدَ الملكِ أدركَ ما فى نفسِ جعفرٍ . فأرادَ أن يهوِّنَ عليهِ ، وأن يُزِيلَ خَجَلَه . فقالَ :

— لا بأسَ .. لا بأسَ . إنى جئتُ راغبـاً فى مشاركتِكُم هذا المجلسَ الأنيسَ . فهاتُوا لنَا ثوبًا من ثِيابكم الخاصةِ .

فكادَ جعفرٌ يطيرُ من الفرح . ونَظَرتُ أَنَا إلى عَمِّى عبدِ الملكِ ، وقُلْتُ فى نفسى :

— لا بدَّ أن يكونَ صاحبَ حاجةٍ عندَ جعفرٍ .

وعادَ إلى المجلسِ أُنْسُه وانْبِسَاطُه . وهنا سألَ جعفرٌ

عبدَ الملكِ عن حاجَتِه . فقالَ عبدُ الملكِ :

— إنَّ أميرَ المؤمنين غاضبٌ عليَّ . فاسألُه الرضاعنِّى .

فأجابَهُ جعفرٌ فى الحال :

— قد رضِيَ عَنكَ أميرُ المؤمِنين .

فلما سمعتُ ذلكَ تعجبتُ ودَهِشتُ وقلتُ فى نفسِى :

— وهل يتحكَّمُ جعفرٌ فى عواطِفِ أميرِ المؤمنين ؟

ثم قَالَ عبدُ الملكِ :

— وعلىّ أربعة آلافِ دينارٍ ، لا أعرفُ كيفَ أَدْفَعُها للدَّائِنين .

فأجابَه جعفرٌ :

— وهى لك حاضرةٌ من خِزَانةِ أميرِ المؤمِنِين .

فَقُلتُ فى نَفسِى :

— لا عَجَبَ ! ! فإنَّ الذى يحكمُ علىأَميرِ المؤمنين أن يَرضى ، لا يُعجِزُهُ أن يحكُمَ عليه بأن يَدفع .

ثم قالَ عبدُ الملكِ :

— وابنى ابراهيمُ ، أريدُ أن يُشَرِّفَهُ أميرُ المؤمنين بالمُصَاهرةِ .

فقلتُ أنا فى نفسى حينما سمعتُ هذَ من عبد الملك :

— لقد أسرَف عبدُ الملك فى مطالبهِ ، وما أظنُّ جعفرًا يَنْدفَع ويوافقُ على هذه الرَّغبة .

ولكنَّ جعفرًا قالَ :

— قد زوَّجَهُ أميرُ المؤمنين بابنَتِهِ عائِشَةَ .

فكدتُ أعتقدُ أن جعفرًا جُنَّ ،أو ذَهَبَ عقلُهُ فى ساعته .

وتمادَى عبدُ الملك فى المطالِب فقالَ :

— وأحبُّ أن يكونَ ابنِى والِيًا لبلدٍ من بلادِ الخليفةِ الواسعةِ ، لتخفُقَ الأعلامُ فوقَ رأسِهِ ، ويَزِيدَ سلطانُه ونفوذُه .

فقالَ جعفرٌ :

— وقد ولّاهُ أميرُ المؤمنين ولايةَ مصرَ ، درّةَ الخلافةِ كُلِّها .

فقامَ عبدُ الملكِ من مجلسنا شاكرًا لجعفرٍ . وأمّا أنا فقدْ تحيّرْتُ مما رأيتُ وسمعتُ ، ولما أعْيانى التفكيرُ قلتُ فى نفسِى :

— هذهِ مجاملةٌ من جعفرٍ ، أرضَى بها هذا الشّيخَ الجليل ؛ وما أظن أن شيئاً ممّا وعدَهُ به يَحْدُثُ .

ولكن . . . نعم ، ولكن ما كادتْ شمسُ اليومِ التالِى تَطْلُعُ ، حتى دخَل جعفرٌ على الرشيدِ ، وأخبرَهُ بكلِّ ما حدثَ ، بلسانهِ الفصيحِ ، وبلاغتِهِ النادرةِ . فإذا بالرشيدِ ينبسطُ ويفرحُ ويرضَى ، ويقولُ لجعفرٍ :

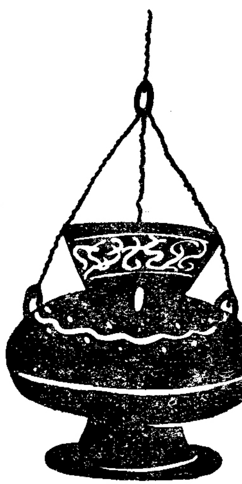
— لقد أحسنتَ يا جعفرُ .

ثم دعا كبير القضاةِ ، وعقَدَ لابنَتِهِ عائشةَ على

إبراهيمَ بنِ عبدِ الملكِ ، ونفَّذَ كل ما وعَدَ بهِ جعفرٌ .

* * *

— أَسمعتَ هذهِ القصـةَ من إبراهيمَ بن المهديِّ ؟ ! هل تَشُكُّ فى صِدقِهَا ؟ ! لا . . لا تشك ؛ فإنها شىءٌ قليلٌ جدًّا مما كان يحدُثُ لى مع الرشِيدِ . ومما كنتُ أَفعلُهُ فى دولتِهِ .



وأما كرمُنَا وعطاؤُنَا فلمْ يكن لهُ حدٌّ ، ولا سمِعَ الزمانُ بمثلِه فى عصرٍ من العصورِ .

وسأختارُ رجلاً عادلًا صادقًا هو الخليفةُ المأمونُ ابنُ الخليفةِ الرشيدِ ، ليقصَّ عليكَ قصةً من قصصِ كرمِنَا .

وقد اخترتُ هذا الخليفةَ لسببين :

أولا : لأنه خليفةٌ عادلٌ صادقٌ كما قلتُ لك سابقاً .

وثانيا : لأنه ابنُ الرشيدِ الذى أكرمَنَا أولاً ، ثم انتقمَ منَّا آخِرًا . فهو لهذا لا يمكنُ أن يَشْهَد لَنَا مُجَامَلةً ومُحَابَاةً . وها هوذا يحدِّثُكَ فاستمعْ إليه :

* * *

— دعانى صديقى جعفرٌ أن أحدِّثكم عن كرمِ البرامِكَةِ ، وهل فى الدُّنيا إنسانٌ لم يسمَعْ بكرم البرامِكَةِ وفضْلِهِم ؟؟

نعم كانَ أبِى سببَ نعمتِهِمْ ، وصاحبَ الفضلِ عليهم فى الثروةِ التى مكَّنَتْهم من الُجودِ والكَرمِ . ولكنَّهم مع ذلكَ كانوا هم يحُبُّون أن يكونوا كُرَمَاءَ ، ولو بَخِلُوا بأموالِهِم على الناسِ لَمَا لامَهُم أحدٌ ، ولا أرغَمَهُم أبِى على الُجودِ بها .

إنَّ عصرَ الرشيدِ كان أزهىَ عصورِ المسلمين ؛ لأنَّ البرامِكَةَ كانوا وزراءَهُ ، وكانُوا يُنفِقُونَ فى كلِّ شىءٍ بلاحسابٍ ، ولا يَخْشَون الفَقْرَ ؛ فأغنَوا الناسَ جميعاً ، وقَضَوا الحاجاتِ لكلِّ محتاجٍ .

وإليكَ قصةً من قصَصِ كرمِهم الخالدِ :

— وقعتْ هذه القصةُ بعدَ نكبتِهم بكثيرٍ ، وبعدَ أن صرتُ أنا خليفةً فى بغدادَ بعدَ أخى الأمين .

فقدْ كان أبِى الرشيدُ (رحمهُ اللهُ !) حرَّمَ على الناسِ أن يذكرُوا البرامِكَةَ بعد نكبتِهم بخيرٍ أو شرٍّ . وظلَّ

الناسُ ينفِّذُون ما أمرَ بهِ والدِى طولَ مدّةِ حكمِهِ .

ولما توليتُ أنا الخلافَة ، علمتُ ذاتَ مرَّة . أن رَجُلاً كبيرًا ، يذهبُ إلى خرَائِبِهم وما بَقِى من ديارِهِم ، ويجلسُ كل ليلةٍ تحت ستارِ الظَّلامِ ، فَيَبْكِيهم ويندُب أيَّامَهم السعيدةَ .

فدعوتُ خادمِى الخاص ، وقلتُ له :

— إذا جاءَ الليلُ فخذْ معك جُنْدِيَّين ، واذهبُوا إلى أطلالِ البرامِكَةِ وخرائِبِهم ، واختَفُوا هنـاكَ حتى يحضُرَ هذا الشيخُ الذى يَبْكِيهم ، فاقبِضُوا عليه وأحْضِرُوه لى .

ونَفَّذَ الخَادمُ ما أمرْتُه بِهِ . فلمَّا وقف الشيخُ أمامِى ، صِحتْ فى وجهه قائِلاً :

— ويلٌ لك أَيُّها الشيخُ ! ! أَتخالِفُ ما أَمرَ به الرشيدُ ، وتَبكِى البرامكةَ فى خلافَتِى وأَنا ابنُهُ ؟ !

فهل يستَحقُّ البرامكةُ أَن تُعَرِّضَ نفسَكَ للهلاكِ بسبَبِهم ؟

فاضطربَ الشيخُ وارْتبكَ ، ونظرَ إلىَّ مستعطفاً وقال :

— يا أَميرَ المؤمنين ، أَنتَ خليفةٌ عادلٌ ، ولى مع البرامِكةِ قصةٌ ، ولهم علىَّ إحسانٌ ، وأُحِبُّ أَن تَسْمعَ قصتى معهم وتحكم علىَّ بعدَها .

فقلتُ له :

— وما قصتُكَ معهم ؟ !

فقال :

— أَنا يا أَميرَ المؤمنينَ المنذرُ بنُ المغيرةِ . من أولاد الملوكِ ، ومن أحفادِ بنى أميةَ ، الذين نَجَوْا من سيُوفِ آبائِكَ وأجدادِكَ . وقد عشتُ فى دِمَشقَ ، يحارِبُنى وُلاتُكُمْ ويضيِّقُون علىَّ فى الرِّزقِ ، ويَسدُّونَ أمامِى أبواب الكسبِ والمعاشِ .



فهل يستحق البرامكة . . .

فأخذتُ أُنْفِقُ مما كنا نَدَّخِرهُ ونخفِيه . وطالَ علىَّ الزمنُ واشتدَّ الفقرُ ، حتى بعتُ كلَّ ما يمكنُ الاستغناء عنه من ثيابٍ وفرشٍ . وأخيرًا اضطررتُ لبيعِ المنزلِ . وساءتْ حالِى أشدَّ سوء .

فأشارَ علىَّ الناصِحُون بأن أخرجَ إلى بغدادَ ، وأقصدَ البرامِكَةَ ، لَعَلِّى أجدُ عندهم ما يدفَعُ عنى شرَّ الحاجةِ والفقْرِ .

فأخذتُ عيالى وخَرجتُ . وكان عندى أكثرُ من ثلاثين طفلا وامرأةً من بقايا بنى أُمَيَّةَ ، وليسَ معنا شيءٌ نعتمدُ عليه فى حياتِنا وسفرِنا .



وبعد سفرٍ شاق متعبٍ وصلْت إلى بغدادَ . فتركتُ عيالى جياعًا فى أحد مساجِدِها . وخرجتُ أَسألُ عن دار البرامِكةِ .

وبينما أنا أسيرُ وجدتُ مسجدًا مزخرفًا ، وفى جانِبِه شيخٌ بِأَحْسَنِ زىٍّ وزينَةٍ ، وعلى بابِه خادمان ، وفى داخِلِهِ جماعةٌ جلوس .

فطمعتُ فى هـذا المجلسِ . ودخلتُ المسجدَ وأنا خائِفٌ متردِّدٌ . . . كلما خطوتُ خُطوةً ، وقفتُ لحظةً ، وأَخَذَ العرقُ يسيلُ من وجهِى وجسمِى كلِّه ؛ لأنى فى الحقِّ يا أَميرَ المؤمنين لم أتعوَّدْ ذلكَ من قَبلُ ، ولم أقِفْ هذه المواقِفَ فى حيَاتِى .

وأخيرًا تذكَّرْتُ جوعَ العِيالِ ، فاندفَعْتُ داخلَ المسجدِ ، وَجلست وسطَ الجالِسين بدونِ شعورٍ .

وبعدَ قليلٍ دخلَ علينا خادمٌ ودعانا للقيامِ ، فقامَ الحاضرون . وقمتُ معهم ، وأنا لا أَدْرِي إلى أَينَ .

وإذا بنا فى دَارِ يَحيى بنِ خالدٍ ، وجَلَس يَحيى فى صدرِ الدارِ ، على دكّةٍ وسَطَ بُستان، وحوله عشرة من أَبنائه . فسلْمنا عليهِ ، وهو يعدُّنا واحدًا واحدًا ، فإذا نحنُ مائةٌ كاملةٌ وجلسنا فى أَماكنَ مُعَدَّة على جانِبَيْ يَحيى .

ولم يمضِ إلا قليلٌ حتى طلعَ من إحدى المقاصيرِ شابٌّ أَمْرَدُ ، لا شعْرَ فى ذقنهِ ، مليحُ الوجهِ ، رشيقُ الجسمِ . وأَمامَهُ مائةُ غلامٍ فى ثيابِ الحرير المزركشَةِ . وفى وسطِ كل واحدٍ منهم حزامٌ من الذَّهبِ الخالصِ .

وسارَ هذا الشابُّ حتى جلسَ على الدِّكةِ بجانِبِ يَحيى ، ولما استقرَّ المجلسُ دعا يحيى القاضِى وقالَ لهُ : تكلم وزوّج ابنتى عائشة من ابنِ أَخى هذا .

فخطبَ القاضِى خطبةً قصيرةً ، وعقدَ العقد ، ووقفَ

الغلمانُ ينثرون فوقَنَا قطعَ المِسْكِ والعَنبَرِ فى شكلِ البُندقِ . ونحن نلتقِطُ ما يقعُ علينَا ، حتى ملأتُ كمى يا أميرَ المؤمنين .

ثم طلعَ علينا مائةُ غلامٍ يحملُون صَوانى من الفضةِ ، وعلى كلِّ صينيةٍ ألفُ دينارٍ . ووضعُوا أمامَ كل واحدٍ منا صينيةً ؛ فنظرتُ إلى الشيوخِ فوجدتُهم يأخذُون الدنانيرَ ، ويضعونَ الصوانى تحتَ آباطِهم ، ويخرجُون داعين مهنِّئين شاكِرين .

فترددْتُ وخِفتُ أن أفْعَلَ مثلَهم ، ولكنَّ الخادمَ غمزَنى ؛ فعرفْتُ أنَّه يأمرُنى بأخذِ الصينيةِ ؛ فحملتُهَا وسِرتُ فى آخرِ القَوْمِ ، وانا أتلفَّتُ يميناً وشمالاً . وأخشَى أن يَهجُمَ علَّى أحدٌ ، ويأخُذَ منى هذه الثروةَ الكبيرةَ .

وكان يحي يلاحِظُنى ، فأمرَ الخادمَ بردِّى إليه . فلما وقفتُ بين يديْهِ سألنى عن قِصَّتى . ودعا ابنَهُ موسى وقال له :

— هذا رجلٌ غريبٌ ، وهو ضيفُكَ .

فأخذَنِى موسى . وأنزَلَنى فى حجرةٍ خاصةٍ من قصرِهِ . وفى الصباحِ دعا أخاهُ العباسَ وقالَ له :

— هـذا ضيفِى . وأنت تعلمُ أنى مشغولٌ فى قصرِ أميرِ المؤمنين ، فخذْه عندَك . وتوَلَّ أنتَ العنايةَ به .

وقد أقمتُ واللهِ يا أميرَ المؤمنين عندَ أولادِ يحيى عشرةَ أيامٍ كاملةً ، وكأنَّنى فى الجنةِ ، حتى نسيتُ عيالِى وجُوعَهم وحاجَتَهم .

وفى صبحةِ اليومِ الحادى عشرَ ، تقدَّم إلىَّ خادمٌ ، وقادَنى إلى قصرٍ كبيرٍ ، ووقفَ أمامَ بابهِ وقالَ لى :

— أنا فى خدمتِكَ ، ومأمورٌ بقضاء جميع حاجاتِك . فاطلبْ منى ما تشاءُ .

— ثم فَتحَ بابَ القصرِ وقالَ لى :

— هذا قصرُكَ . فادخلْ على عيالِكَ بِسَلامٍ

فدخلتُ يا أَميرَ المؤمنين ، فإذا أَنا بحجرةٍ كالشَّمسِ حُسنًا ونُورًا . تفوحُ منها رائحةُ العودِ والعنبر والمسكِ . وإذا بعيالى يتقلبون فى الحرير والديباجِ .

وَحَمَلَ إلىَّ الخدمُ مائةَ ألفِ درهمٍ ، وعشرةَ آلافِ دينار ، وعَقْدَ تمليكٍ لضَيْعَتَين كبيرتَيْنِ لا خَرَاجَ عليهما ، والصينيةَ ، وألفَ الدينارِ .

فأقمتُ يا أمير المؤمنين بينَ هؤلاءِ السادةِ الأمجادِ ، ثلاثةَ عشرَ عامًا ، كأَنِّى واحدٌ منهم ، والناسُ لا يَعْلَمُون . أَمِنَ البرامكةِ أنا أَمْ رجلٌ غريبٌ ؟



فلمـا حلَّتْ بِهِمْ نِقْمَةُ الرَّشِيدِ ، وَوَقَع عليهم
قَضاءُ الله ، ظلمني وزيرُكَ عمْرُو بن مسعدةَ ،
وفَرَضَ عليَّ خراجاً عجزْتُ عَنْ سَدَادِه يا أميرَ المؤمنين .
فَتَذَكَّرْتُ نِعمةَ البرامكةِ عليَّ ، وصِرْتُ أَخْرُجُ إلى دِيارِهِمْ
باكِياً كُلَّ لَيْلَة . فَهَلْ أَنا حَقِيقَة يا أَميرَ المؤمنين
متمردٌ وخارجٌ على أَمْرِ الرَّشِيد ؟ !

قال المنذرُ : ذلك ، وبكَى . فَقُلْتُ لَهُ :

— قد عَفَوْنَا عَنْكَ يا مُنْذِرُ .

ودعوتُ عَمْرَو بن مسْعَدَةَ ، وسأَلْتُه عنهُ فقال :

— نعم يا أَميرَ المؤمنين ، هذا الرَّجُلُ صَنِيعةُ
البَرَامِكةِ ، وقَدْ فَرَضْتُ عليه خَرَاجاً كَبيراً عِقاباً لَهُ .

فَلما سمِعْتُ ذلك لم أَرْضَ بِه ، وأَمَرْتُ عمرو

ابن مسعدة أَن يُعيدَ إلى المُنْذرِ مَا أَخَذَهُ مِنْهُ ، وأَنَّ يُعفيه مِنَ الخَرَاجِ عَلَى ضَيْعَتَيْه .

فبكى المنْذرُ بُكاءً شَدِيداً حينما سَمِعَ أَمْرِى ؛ فَتَعَجَّبْتُ مِنْ شَأْنِه وسَأَلْتُه :

— ماذا يُبْكِيك يا مُنْذِرُ ، وقد أَنْصَفْنَاكَ ، وأَعْطَيْنَاكَ حُقُوقَكَ ؟ !

فقال :

— وهذه يا مَوْلاىَ نِعْمَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ نِعَمِ البرامكةِ عَلَىَّ . فَلَوْلاَ بُكَائِى فى ديارِهم ما عرفتَ قِصَّتِى . وَمَا أَنْصَفْتَنِى .

فلمْ أَستطعْ أَن أَحْبِسَ دُمُوعى ، وبكَيْتُ معه على هؤلاءِ الرجالِ الذين كانوا زينةَ الدُّنيا .

والآن ، هل أَنْصَفتكم يا جعفر؟ وهل شهدت لكمْ ببعضِ ما أَعْرِفُه عنكم ؟ ؟

— نعم يا صدِيق العزيز أَنْصَفْتَنَا وأَرْضَيْتَنا . ولَعلَّ القارىء الكريم يتصوَّرُ مبلغ كَرمِنَا من هذِه القصةِ .

* * *

نحن البرامكة قد اخترْنا جعفرا ليتحدَّثَ إليكَ عن مجْدِنَا فأحسَنَ الحديثَ ، وكان ماهرًا فى إقامِة الأدلَّةِ والبراهين على سيادتنَا وشرفنَا .

ولكن حياتَنا خُتِمَتْ بأفظَعِ فَاجعةٍ عرفَها الناسُ فى التاريخ . وسنكشفُ لك سرَّها فى القصةِ التاليةِ :

نكبة البرامكة

قصص الرشيد

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر

الفجالة - القاهرة